اليمن في عهد الواليين أزدمير باشا وسنان باشا الوزير

"دراسة تاريخية مقارنة"

1538-1555م/ 1569-1571م

أ.م.د. أمة الملك إسماعيل قاسم الثور[1]

[1] - قسم التاريخ والعلاقات الدولية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة صنعاء.

ملخص البحث:

أرسلت السلطنة العثمانية في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي العديد من الحملات العسكرية إلى اليمن إستشعاراً منها بأهمية الموقع الإستراتيجي والجغرافي لليمن على البحر الأحمر، منها الحملات العسكرية للواليين أزدمر باشا وسنان باشا الوزير اللذان كانا من القادة المتميزين عسكرياً وإدارياً. ولقد حرصت السلطنة العثمانية على إرسال الحملات العسكرية إلى اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، استشعاراً بأهمية البحر الأحمر، والموانئ العربية، وأهمها بلاد الحجاز، وذلك حين تعرضت البلاد العربية للغزوات البرتغالية، وتم تحويل التجارة العالمية واحتكارها، فأدى ذلك إلى انهيار اقتصاد البلاد العربية ومنها اليمن. ويتناول البحث أهم الأحداث التاريخية التي حدثت في عهد الحكم العثماني الأول لليمن، في عهد الواليين أزدمر باشا، وسنان باشا الوزير، وبالرغم من الفترة الزمنية التي تفصل بين الواليين، لكن الأحداث التاريخية التي جرت في عهديهما كان لها نوع من التشابه، فقد واجه كلاهما أهم قوة محلية وهي قوة دولة الإمام شرف الدين، وإبنه المطهر وكان لكليهما الفضل في بسط السيطرة العثمانية في كل أرجاء اليمن.

ABSTRACT

In the tenth century Hijri (the sixteenth century AD), the Ottoman Sultanate sent several military campaigns to Yemen as it felt the importance of the geographical strategic location of Yemen on the Red Sea, such as the military campaigns by the two Walis, Azdomer Basha and Sinan Basha Al-Wazeer, who were distinguished leaders in both military and administrative aspects.

The Ottoman Sultanate was keen to send military campaigns to Yemen since the beginning of the tenth century Hijri / the sixteenth century AD because it felt the significance of the Red Sea, the Arab ports, the most important of the Ottoman of the land of Hegaz when the Arab countries were invaded by the Portuguese, and the world trade had been changed and monopolized. That had led to collapse of the economy of the Arab countries such as Yemen.

The current research discusses the most important historical events which took place in the era of the first Ottoman rule in Yemen, during the Wali Azdomer Basha and the Wali Sinan Basha Al-Wazeer. In spite of the time period separating the two walis, the historical events that happened in the two periods of the walis were almost similar. Both of them had faced the most important local force, which the force of the Imam Sharafuddin's state. Both of these two walis had been instrumental in the Ottoman control of all Yemen.

مقدمة:

إمتدت السيطرة العثمانية إلى كل الدول العربية في الجزيرة العربية وبلاد الشام، ومصر، واليمن، واعترف المماليك في اليمن بالسلطنة العثمانية، وأعلنوا ذلك من صنعاء سنة 1517م. واستمرت التبعية الإسمية للعثمانيين في اليمن حتى أقدمت السلطنة على إرسال حملة عسكرية قوية بقيادة سليمان باشا الخادم سنة 1538م، وحرص العثمانيون على تعزيز تواجدهم في اليمن بإرسال أول والي إلى اليمن، هو الوالي مصطفى باشا النشار سنة 1541م، ولم تكن لفترة حكمه أي أهمية حتى تم إرسال حملة عسكرية قوية بقيادة الوالي أويس باشا سنة 1546م، وذلك من أجل تحويل اليمن إلى قاعدة حربية عند مدخل البحر الأحمر. ورغم فترة الهدوء النسبي التي سادت بداية عهد العثمانيون في اليمن، إلاَّ أن الجيوش العثمانية واصلت تقدمها بعد فترة قصيرة إلى المناطق اليمنية المختلفة واستولت على أغلبها حتى وصلت صعدة شمالاً، وذلك في ولاية أزدمر باشا (1549 – 1555م)، ومن ثم في عهد الوالي سنان باشا الوزير (1569 – 1571م).

أسباب اختيار البحث:

لعل من الأهمية بمكان أن نورد أسباب اختيار البحث التي تتمثل في الآتي:

1- الرغبة في المعرفة التاريخية بأعمال الوالي أزدمر باشا العسكرية والعمرانية.

2- التطلع إلى معرفة أعمال الوالي سنان باشا الوزير وإنعكاساتها على المجريات التي حدثت خلال فترة حكمه في اليمن.

3- الحاجة إلى إعادة النظر في بعض ما تم دراسته حول أعمال الواليين – موضوع البحث – بموجب المعلومات الجديدة التي تم التوصل إليها.

4- دور المقاومة المحلية في التصدي للحكم العثماني.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إبراز دور الواليين أزدمر باشا وسنان باشا الوزير في إرساء دعائم الحكم العثماني في اليمن – خلال فترة الدراسة – وإجراء مقارنة تاريخية لفترة حكم كل منهما.

أهمية البحث:

تتضح أهمية البحث في إبراز دور الواليين أزدمير باشا وسنان باشا الوزير في قيادة وحكم ولاية اليمن، وما هي الظروف التي ساعدة على نجاحهما أو فشلهما في هذه المرحلة من تاريخ اليمن، ومقارنة بين فترتي قيادتهما للجيش العثماني وإبراز الأعمال العسكرية والمدنية لكليهما.

مشكلة البحث:

تناولت العديد من الدراسات والندوات والمؤتمرات – المحلية أو الدولية – المهتمة بتاريخ اليمن الحديث عن اليمن، إلاَّ أن تلك الندوات والمؤتمرات لم تتطرق بشكل دقيق للحديث عن الواليين العثمانيين – موضوع البحث –، ولهذا يحاول البحث الإجابة على التساؤلات التالية:

لماذا كانت فترات تواجد الواليين تُعد من فترات الحرب والصراع مع القوى المحلية؟ وأما موقف القوى المحلية من حملات أزدمير باشا وسنان باشا وما الأساليب المناسبة التي من خلالها تمكن أزدمير باشا وسنان باشا الوزير، من توسيع وبسط السيطرة العثمانية في اليمن؟ وهل كان لبعض القوى الداخلية دور في تسهيل أعمال ومهام الواليين وما الصفات المميزة التي صاحبت حكمهما أثناء قيادة وإدارة ولاية اليمن؟ ولماذا أتسمت فترات الحكم العثماني الأول لليمن بقلة الأعمال الحضارية – مقارنة بفترة الحكم العثماني الثاني؟ وما الذي تحقق من منجزات إدارية وعمرانية خلال فترة الواليين لليمن؟ وما مدى نجاح الحملات العسكرية العثمانية في عهد الواليين ومدى رضوخ الجانب اليمني للحكم العثماني؟

منهجية البحث:

سوف تعتمد دراسة البحث المنهج التاريخي التحليلي.

تمهيد:

حرصت السلطنة العثمانية على إرسال الحملات العسكرية إلى اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، إستشعاراً بأهمية البحر الأحمر، والموانئ العربية، وأهمها بلاد الحجاز، وذلك حين تعرضت البلاد العربية للغزوات البرتغالية، وتم تحويل التجارة العالمية واحتكارها، فأدى ذلك إلى انهيار اقتصاد البلاد العربية ومنها اليمن.[1]

يتناول البحث أهم الأحداث التاريخية التي حدثت في عهد الحكم العثماني الأول في اليمن، وفي عهد الواليين أزدمر باشا، وسنان باشا الوزير، وبالرغم من الفترة الزمنية التي تفصل بين القائدين، لكن الأحداث التاريخية التي جرت في عهديهما كان لها نوع من التشابه، فقد واجه كلاهما أهم قوة محلية، وهي قوة دولة الإمام شرف الدين وإبنه المطهر، وكان لكليهما الفضل في بسط السيطرة العثمانية في كل أرجاء اليمن.

الأمير ازدمر باشا:[2]

تولى أزدمر باشا قيادة الجيش العثماني في ظروف قاهرة وقوية بالنسبة لوضع الجيش، وذلك حين تعرض الوالي أويس باشا للقتل (الاغتيال) عند أبواب مدينة ذمار سنة 954هـ/ 1547م، وحين شاع أمر ذلك الاغتيال بين أفراد الجيش، سارع الأمير أزدمر باشا وتولى تنظيم صفوف الجيش تحت قيادته؛ خوفاً من الإضطرابات التي قد تحدث نتيجة لمقتل قائدهم، وحرص على توحيد صفوف الجيش العسكرية السابقة التي بذلها الوالي أويس باشا (1546 – 1547م) عند زحفه حتى وصل أبواب ذمار.[3]

([1]) للمزيد حول الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب: البحر الأحمر والجزر اليمنية (تاريخ وقضية)، أ.د. سالم، سيد مصطفى، دار الميثاق للنشر والتوزيع، صنعاء، 2006، ص 42.

([2]) - أزدمر باشا: كان أحد المماليك الذي دخل في خدمة العثمانيين حين دخلوا مصر، فارتقى في المناصب العسكرية والإدارية المختلفة، ثم انضم لحملة سليمان باشا الخادم المتجهة للهند واليمن، ثم عين كأول أمير عثماني على ميناء جيزان، وبعد ذلك أرتقى المناصب العديدة حتى أصبح أحد الأمراء المشهورين بقوة شخصيته، وسمعته الطيبة. اشتهر بالرأي الصائب، والتدبير الثاقب، والشجاعة والإقدام، عُين والياً على اليمن خلال الفترة (1549- 1555م)، ويُعد رابع الولاة العثمانيين الذي ينسب إليه الفتح العثماني الأول لليمن. (النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد: البرق اليماني في الفتح العثماني، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 1407هـ/ 1986م، ص118،106،98؛ سالم: الفتح العثماني الأول لليمن (1538 – 1635م) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978م، ص187، 212).

([3]) سالم: الفتح العثماني الأول لليمن، ص187، 188، 189؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، 1422 – 2001م، ص18).

المواجهات التي وقعت ضد التوسع العثماني في عهد أزدمر باشا

تمكن الأمير أزدمر باشا من قيادة الجيش وتقدم حتى وصل مشارف صنعاء في رجب 954هـ أغسطس 1547م، وتم حصار مدينة صنعاء حوالي سبعة أيام، وفي نهاية المطاف نجح الجيش العثماني من اختراق تحصيناتها، ودخول المدينة من أحد أبوابها بعد أن كان للخيانة دور ناجح في ذلك، فقد فُتحت أبواب صنعاء للجيش على حين غفلة من حراسها، وبالتالي فقد تمكن أزدمر وقواته من دخول المدينة بعد مقاومة قوية من بعض فرق الحراسة في المدينة، من عساكر المطهر.[1]

وقد ضرب الجيش العثماني سور المدينة بالمدافع حتى تمكنوا من دخولها، وحينها مارس الجيش العثماني أعمال منكرة وسلب ونهب، وكثيراً من الأفعال التي استنكرها سكان صنعاء، وقد هرب بعض أهالي صنعاء إلى ثلاء للاستنجاد بالمطهر.[2]

تناول المؤرخون هذه الحادثة – أي حصار مدينة صنعاء – ثم استباحتها من قبل الجنود العثمانيين بالشرح والتعليق نتيجة للأعمال التي أُقترفت في داخل المدينة، ثم ذكروا كيف تمكن أزدمر باشا من ضبط أمرهم وشد أزرهم ووقف تلك الأعمال.[3]

لوحظ أن أحداث تلك المرحلة من تاريخ الدولة العثمانية، أن الجيش العثماني يقوم بأعمال السلب والنهب بالرغم من قوة العتاد والمؤونة التي كان يحملها معه، وبالرغم من ذلك فقد تعرضت صنعاء لمثل تلك الأعمال، ولم يشفع لأهاليها خروج عساكر المطهر وهروبهم من أحد أبواب صنعاء، كي لا تتعرض المدينة للسلب والنهب التي تواجهه مدن ذلك الزمن، ويقوم بها الجيش المنتصر حين دخوله المدينة.

تعيين أزدمر باشا والياً لليمن:

(1) الشرفي: أحمد بن محمد: اللآلئ المضيئة، مخطوط، ق92؛ الواسعي: عبدالواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث اليمن، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، 1990م، ص222).
(2) الشرفي: اللآلى المضيئة، ج3، ق92.
(3) سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني، ص190؛ العبدلي، أحمد بن فضل بن علي: هدية الزمن، ص99.

ما أن استقر أزدمر باشا في صنعاء حتى وصلت إليه أخبار ثورة وعصيان علي بن سليمان الطولقي الذي استولى على عدن وميناءها، واتصل بالبرتغاليين كي يقدموا له العون ضد العثمانيين[1]، لكن السلطنة أرسلت فرهاد باشا[2] الذي كان له دور كبير في قمع هذه الثورة، وكان عوناً في الخطوات العسكرية التي قام بها أزدمر باشا في المناطق الشمالية.

وبينما كان أزدمر باشا يحاصر مدينة صنعاء، وصلت الأخبار بأن أحد الأمراء العثمانيين ويدعى الأمير حيدر، قام بمحاولة الإستقلال بمدينة زبيد التهامية عن سلطنة أزدمر والسلطنة العثمانية، فتم إرسال موسى بك الذي نجح في القضاء على حيدر، واجتمع بالجنود في زبيد وتم ضبطهم وعودتهم لطاعة الدولة[3]. ونتيجة للتقارير التي وصلت عن أعمال أزدمر باشا فقد عزل السلطان العثماني الوالي فرهاد باشا، وأمر بعودته إلى الديار السلطانية، وتوجيه ولاية اليمن لأزدمر باشا، تقديراً لجهوده العسكرية.[4]

لم تتوقف جهود أزدمر باشا في صنعاء، وقمع الإضطرابات والثورات في عدن وزبيد، وغيرها من المدن، لكنه بعد استقراره في صنعاء عاصمة ولاية اليمن، قرر المضي نحو الأقاليم الشمالية، خاصة مع تأهب قوات وقبائل المطهر بن شرف الدين لحرب العثمانيين، والعمل على إيقاف المد العثماني في أقاليم اليمن المختلفة.

الصعوبات الطبيعية:

كان للصعوبات الطبيعية كوعورة الجبال، وارتفاع قممها دور في عرقلة زحف القوات العثمانية بين هذه الجبال والصخور، فكان من الصعوبة على جيش أزدمر باشا وهو الجيش النظامي، وما يملك من الآلات ومعدات ثقيلة تكلفه الكثير من الجهد والوقت في السير والتنقل

(1) العبدلي، أحمد فضل بن علي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/1980م، ص99.

(2) فرهاد باشا (954هـ/ 1548م) وصل إلى زبيد، وعمل على استعادة عدن وإخماد الإضطرابات الساحلية، ومنها أنه قضى على ثورة علي بن سليمان الطولقي. وقد امتد نشاطه إلى جيزان وقضى على ثورة الشريف بن المهدي ضد التواجد العثماني. وتم عزله بالرغم من صلاحيته وقدرته العسكرية وذلك إرضاءً لأزدمر باشا ولجهوده في اليمن. (سالم: سيد مصطفى: الفتح، ص194).

3 النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص100، 101.

4 الموزعي، شمس الدين عبدالصمد: الإحسان في دخول مملكة اليمن في ظل عدالة آل عثمان، ص31.

بها. وكان من الصعوبة على جيش كهذا أن يواجه رجالاً تربوا في هذه الجبال واعتادوا التعامل معها وعرفوا طرقها وخباياها ولذا فقد كانت خسائر العثمانيين كبيرة.[1]

وقد تساءل كثيراً من المؤرخين والكُتاب لماذا فكر أزدمر باشا ومن بعده بقية القادة العثمانيين، في المضي بالقوات العثمانية نحو الشمال، خاصة مدينة ثلاء، المدينة التاريخية، شمال غرب صنعاء، وفيها حصن ثلاء التاريخي[2] المبني على أعلى قمة جبل هناك، حيث يتحصن المطهر[3] بن الإمام شرف الدين وقبائله المعاضدة له، وحيث ميدان الحرب أكثر صعوبة وأشد وعورة بالنسبة للجيوش العثمانية النظامية.

كان الدافع الأساسي لأزدمر باشا ومن بعده من الولاة العثمانيين في خوض مواجهات في مثل هذه الظروف القاسية هو الشعور بالقلق من تزايد خطر المطهر ومن حوله من المؤيدين له، فعلى الرغم من ضعف أسرة آل شرف الدين وتفككها في هذه المرحلة، لكنها في حالة الحرب ساندت الزعيم العسكري لها، وقرروا مواجهة العدو المشترك بالنسبة لهم، وإن شذ بعض أفراد الأسرة ووقف إلى جانب العثمانيين نكاية بالمطهر كأخيه شمس الدين، إلاَّ أن الغالب على الأسرة هو التكاتف والوقوف إلى جانب المطهر.

([1]) الشرفي: اللآلئ المضيئة، ق93، سالم، سيد مصطفى، الفتح العثماني، ص 204.

([2]) حصن ثلاء: مدينة وحصن شمال غرب مدينة صنعاء، وتنسب إلى ثلا بن لباخة، وهي من المدن التاريخية، عامرة بالعلماء والمساجد المشهورة، مثل مسجد المطهر بن الإمام شرف الدين، وبها الحصن التاريخي المشهور الذي يشتهر بمناعته وعلوه، ويعد من حصون المطهر المشهورة التي تحصن فيها أثناء حروبه مع العثمانيين في الحكم العثماني الأول لليمن. (المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجمهورية اليمنية، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1422هـ/2002م، ج1، ص258).

([3]) المطهر بن الإمام شرف الدين: الأمير الكبير، اشتهر بالشجاعة والحزم والإقدام والمهابة والسياسة والكياسة والرياسة. كان من أعظم وأقوى قادة والده الإمام شرف الدين (بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى). حارب العثمانيين في فترات طويلة وخاصة في عهد الواليين أزدمر باشا وسنان باشا، حصلت بينه وبين والده وأخوته وحشة وعداوة بسبب ولاية العهد التي عهد بها والده إلى أخيه علي بن الإمام شرف الدين، ورفضها المطهر وأعلن العداء والحرب ضد والده وأخوته، وتحصن في قلعة ثلاء المنيعة، ووقع بين المطهر وأخيه شمس الدين عداوة وحروب حتى أل الأمر أن اعتزل الإمام في حصن الظفير في حجة حيث توفي ودفن هناك. وقد حصل المطهر على كثير من معاقل اليمن ومدائنها، خاصة بعد موت والده، وراسل السلطان سليمان القانوني وجرت بينه وبين العثمانيين حروب وخطوب كثيرة، ونال منهم ونالوا منه حتى وفاته سنة 980هـ/1573م. وبعد وفاته تدهورت أحوال آل شرف الدين وتفرقوا، البعض منهم أنضم تحت طاعة العثمانيين ومنهم محمد بن شمس الدين. الشوكاني، علي بن محمد (ت1250هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: حسين بن عبدالله العمري، 826.

لذا كان الوضع حينذاك يحتم على أزدمر باشا ومن جاء بعده من القادة العثمانيين الزحف نحو ثلاء وما جاورها، فقد كان يرى إستحالة بقائه في صنعاء، والمطهر وقبائله يتربصون به شمال صنعاء، ويتجمعون من أجل محاربته.[1]

خرج الجيش العثماني بقيادة أزدمر باشا لحرب آل شرف الدين، ومحاصرة المطهر في ثلاء وحصنها المنيع، وقد استمر الحصار قرابة سبعة أشهر، وعندما أدرك أزدمر باشا عدم جدوى الحصار قرر دعوة المطهر للصلح، وعقد إتفاق بين العثمانيين والمطهر.

وقد ساعد في اتخاذ قرار الصلح مع المطهر أمور، أهمها اختلاف الآراء والمخططات العسكرية، بين أزدمر باشا ومصطفى باشا النشار، الذي أرسلته السلطنة إلى اليمن في هذه الفترة ليكون عوناً لأزدمر باشا؛ فقد كانت وجهة نظر أزدمر باشا أن يتم القضاء على المطهر، خاصة وأن القوات العثمانية قد تكبدت خسائر كبيرة، وكادت جهوده أن تثمر بما خطط له، لكن مصطفى النشار كان يتعجل الصلح حتى يظهر في استانبول بأنه نجح في أداء مهمته دون أن يكلف الدولة أي أعباء مالية أو عسكرية جديدة[2]، لذا اتخذ مواقف إنفرادية دون التشاور مع الأمير أزدمر باشا؛ فقد راسل المطهر عارضاً الصلح والإتفاق، وعرض عليه المال، وقدم للمطهر الخلعة السلطانية، وأرسل للباب العالي يعرض بأن المطهر قد دخل في طاعة العثمانيين، نافياً عنه الخروج والعصيان، ووصل خطاب من السلطان سليمان القانوني للمطهر تعزيزاً لمواقف مصطفى النشار، وتأكيداً لدخول المطهر تحت طاعة السلطان.[3]

وقد تم ما خطط له مصطفى باشا النشار وأبرم الصلح وأصبح دستوراً للطرفين وللعلاقات العثمانية مع المطهر، فقد كان من أهم بنوده: دخول المطهر واعترافه بطاعة السلطان، وأن تكون الخطبة والسكة بإسم السلطان، مع ورود بنود وإمتيازات لكلا الطرفين.[4]

([1]) سلم: الفتح، ص191.
([2]) الشرفي: اللآلئ المضيئة، ج3، ص93، سالم: الفتح، ص201.
([3]) النهراولي: البرق اليماني، ص108، ابن لطف الله، عيسى شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط1، 1424هـ - 2003م، ص142.
([4]) نفسه، ص205، روح الروح، ص148.

المطهر وأسباب مواجهته حملة أزدمر باشا:

بعد خلافات ومواجهات حدثت بين الإمام شرف الدين وإبنه شمس الدين من جهة والمطهر ابن الإمام شرف الدين من جهة أخري استحوذ المطهر على الأمور في تلك الفترة، بعد أن اضطر الإمام شرف الدين إلى تقديم تنازلات كبيرة للمطهر أملاً منه في إنقاذ دولته من تهديد العثمانيين الذي كان المطهر قد مد لهم يد العون والمساعدة نكاية في والده وأخيه شمس الدين، إذ كان الإمام يهدف إلى تغيير موقف المطهر ويجعله يدافع عن الدولة التي أصبحت بيده، وقد تم له ذلك، إلاَّ أن شمس الدين ابن الإمام لم يقبل انتصار المطهر وسيطرته على الدولة فعمل على الإطاحة بأخيه المطهر وذلك بالتعاون مع القوات العثمانية الزاحفة ناحية المناطق الشمالية، وقد عزز ذلك الأمر بأن تم استصدار حكمٍ سلطاني لشمس الدين بن الإمام شرف الدين الذي مُنح أعطية مالية مقدارها خمسون ألف أقجة (عملة عثمانية) على أن يقدم خدماته للعثمانيين، ويتعاون مع الأمراء (البكلر بكي) فقد كان شمس الدين بن الإمام شرف الدين من أهم الشخصيات التي عارضت المطهر، وألب عليه الخصوم في فترات الحرب مع العثمانيين، وكان واحداً من أسباب ضعف المطهر وانهزامه أمام الزحف العثماني، إلى جانب الأسلحة القوية وأهمها المدفعية والجيش المنظم للسلطنة العثمانية.[1]

غير أن المطهر لم يستسلم وانسحب مع ما بقي له من قوات إلى ثلاء مما جعل القبائل وعلى اختلاف اتجاهاتهم يلتفون حوله، على إعتباره قائد المقاومة اليمنية ضد الوجود العثماني في اليمن، ولمس أزدمر باشا قوة المقاومة من المطهر ومن معه من القبائل، ولذا فقد وافق على عقد الصلح، بالرغم من إستيلائه على بعض الحصون والقلاع الحصينة في الأقاليم الشمالية [2]

أعمال أزدمر باشا العسكرية وآثاره الحضارية في اليمن:

سجل المؤرخون لأزدمر باشا في اليمن، أعمالاً وجهوداً كبيرة حظي بسببها على تقدير السلطان سليمان القانوني؛ فأرسل له مرسوماً يقضي بتعيينه والياً على ولاية اليمن، سنة 956هـ/

(1) بيات، فاضل: البلاد العربية في الوثائق العثمانية، استانبول، 2011م، ص103.
(2) سالم: الفتح، ص199، عيسى بن لطف الله: روح الروح، ص146.

1546م، – كما أشرنا آنفاً – تقديراً لجهوده في إنقاذ مسيرة الجيش في اليمن في تلك المرحلة؛ فقد وحد أقاليم اليمن الجنوبية والشمالية، واستولى على صنعاء، وفرض وأخضع قوة الدولة على المدن اليمنية، حتى مدينة صعدة شمالاً، وثبت النفوذ العثماني في زبيد وعدن، وكل المناطق التهامية والجنوبية.[1]

ونجح بفطنته وقوة شخصيته أن يضم إليه أفراداً من آل شرف الدين، وأشهرهم شمس الدين الذي استصدر له ترقية وسليانة شهرية كما سبق أن ذكرنا.

إلى جانب فرض قانون الدولة وهيبتها في بنود الصلح التي أبرمها مع المطهر.

كما نجح في ضم مدن وأقاليم كثيرة تحت قوة السلطنة وهي: ريمة، وعتمة، ووصابين، وهي مثلث جبلي عصي على كل من يحكم اليمن، ثم إتجه إلى كحلان وحبش، والشوافي، وقمع الاضطرابات التي قامت فيها.

واهتم أزدمر باشا بتأمين الطرقات، والمدن والمناطق المحيطة بمدينة عدن وميناءها، وابتنى حصناً كبيراً في مدينة خنفر، على حدود عدن، من أجل تأمين طرق القوافل المتجهة إلى ميناء عدن، ودعم النفوذ العثماني في هذه الأقاليم.[2]

كما أنشأ أزدمر باشا جامع، يعرف حالياً بـ(جامع الزمر) ومدرسة في حي باب شعوب في صنعاء القديمة حالياً، وبالقرب من الجامع بنى خاناً للمسافرين، جعله وقفاً للجامع المذكور، ويعد من الجوامع العامرة في صنعاء القديمة.[3]

نستخلص من كل ذلك أن حملة أزدمر باشا كان لها آثاراً كبيرة في تاريخ اليمن، فقد حرص أزدمر باشا على ترسيخ وتوطيد الحكم العثماني على جميع أقاليم اليمن من عدن جنوباً إلى صعدة

(1) ابن لطف الله، عيسى: روح الروح، ص148.
(2) الموزعي، شمس الدين عبدالصمد بن إسماعيل: دخول العثمانيين الأول إلى اليمن (المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان) تحقيق: عبدالله الحبشي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 1407هـ/ 1986م، ص3؛ سالم: الفتح، ص207؛ بن لطف الله، عيسى: روح الروح، ص149.
(3) الثور، أمة الملك: {الولاة العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنسانية في فترتي الحكم العثماني الأول والثاني لليمن (945 – 1045هـ/ 1635م – 1289 -1336هـ/ 1872 – 1918م) السياحة والآثار، المجلد الثاني والعشرون، رجب 1431هـ/ يوليو 2010، جامعة الملك سعود (149-125)، ص128؛ راشد بك، أحمد: تاريخ اليمن وصنعاء، المركز الوطني للوثائق، صنعاء ج.ي، ترجمة: مديرية التطوير القتالي، ص509.

شمالاً، وأعانه في ذلك قوة الدولة، واهتمام السلطان سليمان القانوني باليمن، الذي كان ينظر لوضع اليمن من زاوية أهميتها الإستراتيجية في جنوب الجزيرة العربية، وأهميتها في التحكم بمضيق باب المندب، ووجود الموانئ التجارية الهامة، مثل ميناء المخاء، وميناء عدن.

سنان باشا الوزير[1] وظروف توليه قيادة الحملة على اليمن:

إستقر العثمانيون في الأقاليم والمدن التي سيطروا عليها في اليمن، وتولوا مسؤلية إدارتها وحكمها، لكن بدأت تظهر ملامح العداء في أوساط اليمنيين تجاههم نتيجة للأعمال المخالفة للشريعة الإسلامية، كان أبرزها السلب والنهب، وابتزاز أموال الرعية والمزارعين، واستحداث قوانين جديدة، والقيام بأعمال منافية للأخلاق والدين، خاصة بعد أن حكم اليمن مجموعة من الولاة الإنتهازيين والوصوليين الذين تعمدوا أن يقوموا بتقسيم اليمن إلى ولايتين شمالية وجنوبية، وأهملوا شئون البلاد، وانحصر دورهم على جمع الأموال والثروات. كل ذلك أثار مشاعر الناس، وولدت العداء تجاه الولاة والحكام والجنود العثمانيين.[2]

وكانت تلك الأعمال والتصرفات مبرراً للمطهر في إعلان الثورة على العثمانيين، واستثمرها في تأجيج مشاعر الأهالي، وتم تأطيرها دينياً تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الظالمين، ومنحه هذا الشعار الشرعية الدينية من أجل إعلان الحرب ضد العثمانيين في اليمن. وتفاعل الناس والقبائل مع دعوات المطهر واستجابوا لها.

وانتشرت الثورة في أرجاء اليمن، وأحرز آل شرف الدين انتصارات كبيرة، وانكمش الحكم العثماني في اليمن، وانحسر في مدينة زبيد والسواحل التهامية على البحر الأحمر، وقد استمات الوالي العثماني حسن باشا في الدفاع عن زبيد كي يظل على اتصال بالعاصمة العثمانية.

ومن ثم صدرت الأوامر السلطانية للوزير مصطفى باشا (اللالا) أن يقوم بتجهيز حملة عسكرية، ويقوم بجمع الإنكشارية والسباهية، وتعيين أمراء السناجق وتعيين عثمان باشا قائداً

(1) للمزيد عن تاريخ وأحداث اليمن في فترة تولي سنان باشا الوزير، الذي أطلق عليه المؤرخون فاتح اليمن الثاني لسنة 1569م. وكان له أحداثاً ووقائع كثيرة ذكرها المؤرخ صاحب كتاب البرق اليماني للمؤرخ قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي. ونتيجة لقدراته العسكرية والإدارية فقد تم تعيينه صدراً أعظم للسلطنة العثمانية أربع مرات.

(2) يمكن الرجوع إلى كتاب سالم، الفتح العثماني، الفصل الرابع، ص214-250.

كمقدمة للحملة المتجهة إلى اليمن، وتم التأكيد على ضرورة تعاون عثمان باشا وحسن باشا في زبيد.[1]

وقد أصدر السلطان العديد من الفرمانات والأحكام لمصطفى باشا (اللالا) من أجل إعداد الحملة، لكن خلافات شخصية بين سنان باشا ومصطفى باشا تسببت في تأخير الحملة وخروجها من مصر، مما أدى إلى تغيير تقرير مصير الحملة، واستحواذ سنان باشا على الأمر[2]، وتم إسناد القيادة لسنان باشا الوزير الذي كان حاكماً عثمانياً في ولاية مصر[3]. وقد صدر عن الباب العالي العثماني العديد من الأحكام والتقارير التي تفيد وتأمر الوالي أن يقوم بتفحص الأحوال، واسترداد القلاع، وتطمين الأهالي، وإزالة البدع التي استحدثها البكلربكية القدامى.[4]

سنان باشا في تعز وصنعاء:

غادرت الحملة العثمانية ولاية مصر بقيادة سنان باشا في 17 رجب سنة 976هـ/ 1569م، وقد مُنح ترقية إلى درجة وزير وأعطيت له عدة صلاحيات إدارية وقانونية من أجل حل أزمة العثمانيين في اليمن.[5]

وقد كان لسنان باشا خطة عسكرية، عمل على تنفيذها في مهمته داخل اليمن، تتمثل في مهمتين: الأولى: حرصه على الاحتفاظ بسواحل وميناء عدن لما لها من أهمية استراتيجية في التجارة الدولية، وفي النزاع القائم بين العثمانيين والبرتغاليين، والمهمة الثانية إعادة السيطرة على ولاية اليمن كاملة.[6]

وقد مرت هذه الحملة العسكرية بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: الإستيلاء على تعز وقلعتها، وعودة كل الأقاليم الجنوبية بما فيها عدن إلى الحكم العثماني.

(1) دفاتر المهمة D :1793.1922.1925/611.1528/7B.e.o.
(2) سالم، سيد مصطفى: الفتح، ص255؛ الموزعي: الإحسان، ص40.
(3) دفاتر المهمة، سالم: الفتح، ص256، D :1793.1794/611/7B.e.o.
(4) دفاتر المهمة D :611.1528/7B.e.o.
(5) سالم: الفتح، ص260.
(6) سالم: نفسه، ص261.

وصل الجيش العثماني إلى اليمن بقيادة سنان باشا الوزير حتى مدينة تعز، وتوقف تحت قلعة القاهرة[1]، وعجزوا عن اختراقها أو الإستيلاء عليها، وتحول الانتصار حين استولوا على المدينة إلى فشل بسبب إرتفاع قلعة القاهرة وحصانتها، وقوة مدافعيها، وتعرض الجيش لوابل من حجارة المدافع التي كانت تشل حركة الجيش، لكن سنان باشا بخبرته العسكرية وفطنته، تفاوض مع قائد حامية قلعة القاهرة علي الهمداني "قائد الطائفة الإسماعيلية" الذي كان قد دخل تحت خدمة المطهر في فترة إنكماش وضعف الحكم العثماني في اليمن، وعينه المطهر قائداً لحامية قلعة القاهرة في تعز، وعند قدوم سنان باشا إلى اليمن تمكن زعيم الطائفة الإسماعيلية في اليمن الهروب من قبضة المطهر ولجأ إلى سنان باشا وعاد إلى سابق عادته في تقديم خدمات الإسماعيلية للعثمانيين، وتوجيه ضرباتهم للمطهر وتجدد الخلافات التقليدية بينهم وبين الزيديين.

وبالتالي فقد تواصل الداعي محمد بن عبدالله زعيم الطائفة بزعيم الطائفة الإسماعيلية في قلعة القاهرة واتفقا على أن تقوم الحامية بتسليم نفسها لسنان باشا وتسليم القلعة لقواته، على أن يتم منحهم الخلع والإمتيازات التي اتفقوا عليها مع سنان باشا الوزير والتي تتضمن ضمهم لكشوفات الأعطيات والسليانات (المرتبات) العثمانية المعتادة وبما يكفل لهم الحياة المستقرة، فمنحهم الأمان، وأجزل لهم العطاء، فسلموا أنفسهم لسنان باشا.[2]

ونلاحظ نجاح سنان باشا الوزير في مساعيه تلك، فقد أراد أن يحقق انتصاره العسكري مقروناً بالانتصار السياسي، حتى يمحو ما لحق بالعثمانيين من سمعة سيئة بأنهم لا يوفون بالعهود، وحتى يطمئن له بقية اليمنيين في مسيرة جيشه القادمة.[3]

(1) القاهرة: هي قلعة حصينة تشرف على مدينة تعز، يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الهجري، أول من بناها الأمير عبدالله الصليحي، وقد لعبت دوراً مهماً في مراحل التاريخ اليمني. (المقحفي، إبراهيم، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، 2002م، ص1242. (النهروالي: البرق اليماني، ص98، 106، 118؛ أ.د. سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني، 187، 212).

(2) الموزعي: الإحسان، ص43-44؛ ابن لطف الله، عيسى، روح الروح، ص176، 180.

(3) للمزيد حول أحداث حصار قلعة القاهرة في عهد سنان باشا يوجد بحث للباحثة بعنوان: (تنافس القوى السياسية على مدينة تعز أثناء الحكم العثماني الأول) العاشر الهجري: السادس عشر الميلادي، نُشر في كتاب المؤتمر العلمي الأول (تعز عاصمة اليمن الثقافية، مايو2009م).

رتب سنان باشا أحوال المدينة، وعين عليها أحد الأمراء، ثم عزم التوجه إلى صنعاء، وفي أثناء ذلك أرسل قوة بحرية إلى عدن بقيادة الأمير ممبي، الذي تمكن من إسترداد ميناء عدن، ولكن بعد أن غدر بالأمير قاسم بن الشويع الذي قد أعطاه الأمان، فغدر به وقتله، وكان لهذا التصرف انعكاس سيء لدى المطهر وقادته.[1]

المرحلة الثانية: نجاح سنان باشا في إخضاع الهضبة الوسطى، ثم دخول صنعاء.

نجحت القوات العثمانية باجتياز الطرق الجبلية الوعرة حتى وصلت إلى ذمار، ومنها إلى صنعاء، فدخلتها قواته دون مقاومة؛ لأن المطهر كان قد قرر الإنسحاب إلى ثلاء وكوكبان؛ خوفاً من تعرض المدينة للنهب والسلب، كما حدث في عهد أزدمر باشا.

وبالتالي دخل سنان باشا الوزير صنعاء في صفر 977هـ/ 1569م، بأمان، وحرص على تأمينها، ومَنَع جنوده من دخول البيوت.[2]

المرحلة الثالثة: التي حدث فيها الصدام العسكري بين قوات سنان وبين آل شرف الدين، بقيادة المطهر عند ثلاء وكوكبان وما حولها، حتى تم عقد الصلح ومغادرة سنان باشا لليمن.

وفي فترة ضعف الدولة نجح المطهر وأفراد أسرته أن يمد سيطرته على كل أقاليم اليمن وطارد القوات العثمانية حتى أبواب زبيد، ولذا فقد سارعت السلطنة وأرسلت سنان باشا إلى اليمن.

توجه سنان باشا إلى ثلاء وكوكبان شمال صنعاء، وهناك واجه الجيش العثماني صعوبات كبيرة في إقتحام القلاع والمدن، والسيطرة على أهم حصنين في المنطقة، وهو حصن ثلاء، وحصن كوكبان[3]، التابعين لقوات المطهر، وأفراد أسرته، وما يميز هذه المرحلة أن المطهر نجح في أن يفرض على سنان باشا الميدان الذي يحارب فيه، والمتمثل في الجبال والقلاع التي يتحصن فيها المطهر وجيشه، وبالتالي فشل الحرب النظامية التي يتقيد ويسير عليها الجيش العثماني.

(1) سالم: الفتح، ص232-235؛ ابن لطف الله: روح الروح، ص181.
(2) سالم: نفسه، ص272، 273؛ ابن لطف الله، عيسى: نفسه، ص183.
(3) كوكبان: حصن ومعقل تاريخي مشهور يقع شمال شرق مدينة شبام، ويطل على قاع المنقب، ويحيط بالمدينة سور حصين، والمدينة حصن قوي مبني على قمة الجبل. (المقحفي، إبراهيم، معجم البلدان والقبائل، 1357/2).

ومنها: صعوبة اقتحام أسوار وتحصينات مدينة كوكبان التي تقع على سفح جبل كوكبان العالي وصعوبة الطريق والصعود إلى قمة الجبل تحت قيادة القائد حسن باشا.

وقد نجح الجيش العثماني في إرتقاء الجبل واستولى على حصن بيت عز وبقية الحصون التي تقع في الطريق إلى كوكبان وحصن ثلاء. وتم لهم إرتقاء الجبل ولكن الصعوبات التي واجهتهم أثناء ذلك كانت قوية وشديدة، منها: عدم تمكنهم من نقل المدافع وآلات الحصار وتحاشيهم إشعال المواقد حتى لا يكشف أمرهم، وتضرر الجيش من تدحرج الأحجار الكبيرة التي كانت تحطم ما صادف من الخيل والرجال. وحاول سنان باشا أن ينقذ جيشه بأن أمر مدافعه أن تطلق نيرانها على قوات المطهر وقائده محمد بن شمس الدين حتى يستطيع حسن باشا وقواته الصعود إلى قمة الجبل والوصول إلى أمام بوابة مدينة كوكبان في القمة.[1]

وواجه الجيش العثماني صعوبة اقتحام المدينة لما كانت تشتهر به من حصانة منيعة وأسوار عالية وقوة وسائل الدفاع خاصةً أن المدينة كانت محاطة بخندق عميق وعريض يصعب اجتيازه أو اختراقه. وقد بذل الجيش العثماني جهوداً كبيرة من أجل اختراق هذا الخندق، واستخدم الزّحّافة لمحاولة اقتحام بوابة المدينة، لكنها في نهاية المطاف سقطت في أسفل خندق في الوادي. وكانت النتيجة الفشل لكل المحاولات لأن اليمنيين تمكنوا من إزالة كل أسباب وأدوات الحصار. وضاق الطرفان من تلك الحرب وحصار اليمنيين في داخل مدينة كوكبان.[2]

وفي نهاية الأمر تم التفاوض على عقد صلح بين الطرفين، وتم الاتفاق في (977هـ/ 1570م) وكانت بنود الصلح وشروطه نفس بنود الصلح الذي أبرم مع أزدمر باشا من قبل، وخلاصته أن يعترف المطهر بالسيادة العثمانية، وأن تبقي للمطهر ممتلكاته الخاصة في ثلاء، والظاهر، وصعدة، وذي مرمر، والشرف، وحجة، والأهنوم، ما عدا حصن الطويلة لم يتخل عنه العثمانيين حتى يكون لهم حامية رمزية فيها وفي مدينة صعدة.[3]

(1) سالم: الفتح، ص284.
(2) الشرفي: اللآلئ، ج3، ق107.
(3) سالم: الفتح، ص294، ابن لطف الله، عيسى: روح الروح، ص188.

ونلاحظ تناوب العثمانيين وآل شرف الدين في الحكم والسيطرة، نتيجة لظروف سياسية وعسكرية، يتعرض لها طرف، فتكون الغلبة للطرف الآخر، والحكم في النهاية للأقوى.

جاهر اليمنيون بمختلف فئاتهم بالثورة والعصيان ضد العثمانيين في حالة تعرضهم للظلم، ولا فرق في ذلك بين سكان المناطق الجنوبية والشمالية، وبين السني والزيدي، بل كانت هناك ثورات قوية، وحاسمة من الأهالي في الجنوب والمناطق الوسطى أشد من الأهالي في الشمال، مثل ثورات إقليم ريمة، وقبائل يافع، فقد كانت ثوراتهم أصلب عوداً من القبائل الشمالية.

وكان للأخطاء الفردية التي كان يقترفها الأمراء والجنود أثرها في إثارة مشاعر اليمنيين، وارتكاب هؤلاء لأعمال منافية للأخلاق والدين، مثل المجاهرة بشرب الخمور في الشوارع والحارات.

ومن الأعمال السلبية التي قام بها سنان باشا في اليمن هدم القلاع والحصون في الأقاليم التي كان يمر بها الجيش، وقاموا بهدم جسور مدينة شبام كوكبان، ودمر كل وسائل دفاعاتها؛ لأنها تقع تحت الجبل التي فيها كوكبان، إحدى قلاع آل شرف الدين الحصينة.[1]

بالرغم من قوة شخصية سنان باشا ومهاراته السياسية والعسكرية، وتمكنه من اجتياز كثير من الصعوبات في اليمن، إلاَّ أنه واجه صعوبات من نوع آخر تتمثل في إهمال العاصمة ووالي مصر من إمداده بالمال والمؤن، ولذلك فقد استعان وتعاون مع بعض القوى المحلية في داخل اليمن[2]. فقام رجاله بأعمال سلب ونهب للحبوب والغذاء، والمؤن من المنطقة التي كان يعسكر فيها الجيش، مما جعل كثيراً من القبائل تنضم لجيش المطهر ومحاربة الجيش العثماني.

(1) سالم: الفتح، ص278.
(2) دفاتر المهمة D :849/7B.e.o

وقد تعاون أفراد الطائفة الإسماعيلية في اليمن مع قوات سنان باشا، وقدمت العون والمساعدة، وعملت لدى الجيش كأدلاء، وكان لهم دور كبير في تقديم الدعم والتشجيع من أجل محاربة آل شرف الدين.[1]

وكان هناك بعض القوى المحلية من أهالي مدينة تعز الذين قدموا العون والمساعدة لقوات سنان باشا، حين قدم إليها بقواته، ففتحوا له أبواب سور تعز ليلاً، وتمكن الجيش من اقتحام المدينة والسيطرة عليها، وكان هؤلاء ممن تضرروا من امتداد حكم المطهر على مدينة تعز وما حولها في فترة ضعف الحكم العثماني، قبل قدوم سنان باشا.[2]

أعمال سنان باشا العسكرية في اليمن:

تُعد فترة وجود القائد سنان باشا الوزير في اليمن من الفترات العسكرية القوية، فقد قدم إلى اليمن وهو مكلف بمهمة عسكرية محددة، وهي إعادة السيطرة العثمانية على ولاية اليمن، وقد منحه السلطان صلاحيات كبيرة وأسلحة وذخيرة كبيرة وآلافاً من الجنود.[3]

ولذا فقد اقتصرت أعمال سنان باشا في اليمن على الأعمال العسكرية، وما يتصل بأعمال الحملة التي كان يقودها في اليمن، وقد صدر حكم بخصوص ضرب العملة في اليمن، وإشعاره بأن يجلب الفضة من مصر.[4]

وقد كان له قرار إلغاء ما تم فرضه على أهل تعز من إتاوات مالية مبتدعة من الأمراء السابقين، كان يطلق عليها (المضرة، الضيقة، السُخرة) وحرص على تسجيل إلغائها في المحكمة الشرعية بمدينة تعز.[5]

(1) العمري، حسين: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص20.؛ المصري، أحمد صالح، موقف المؤرخين اليمنيين المعاصرين للحكم العثماني الأول بين مؤيد ومخالف، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة صنعاء كلية الآداب 2006، ص35.

(2) الموزعي: الإحسان، ص41؛ سالم: الفتح، ص266.

(3) دفاتر المهمة، D :2099,2100/7B.o.e

(4) دفاتر المهمة، D :2071/7Bo.e

(5) الموزعي: الإحسان، ص 43،44.

أرسل سنان باشا تقريراً مفصلاً إلى عاصمة السلطنة يشرح فيه أحوال اليمن وأوضاعها، وما آلت إليه الأمور من بسط القوة والسيطرة[1]، ثم تلاه طلب من الباب العالي لسنان باشا أن عليه الإفادة عن إنتهاء مهمته، ومن سيخرج، ومن سيبقى من الجند في اليمن، وإرسال تقرير مفصل بهذا الشأن.[2]

ومن خلال سير الأحداث السابقة لا بد لنا من عرض مقارنة تاريخية عن فترة قيادة الحملة العثمانية لكلا القائدين، وما هي الظروف الإيجابية والسلبية التي واجهتهما في اليمن:

أزدمر باشا:

قاد أزدمر باشا الجيش العثماني الذي قدم مع أويس باشا في فترة طموح السلطنة لفرض هيبتها وتوسعها في الولايات العربية، وكان السلطان سليمان القانوني، المعروف بحزمه وقوته، قد ساند أزدمر باشا ومده بالقوات والمؤن والعتاد، وحين أرسل الوالي فرهاد باشا (954هـ/ 1548م) ليكون عضداً وعوناً لأزدمر باشا في اليمن، وكان والي مصر في ذلك الحين أداة طيعة منفذة لكل الأوامر والفرمانات السلطانية التي تصدر إليهم.

وحين قدم الجيش العثماني إلى اليمن مع أويس باشا وتسلم أزدمر باشا قيادة الجيش، كان اليمنيون يكنون للعثمانيين شعوراً ودياً على اعتبار أن العثمانيين تصدروا الحرب ضد البرتغاليين في البحار العربية، ونجحوا في صد تلك الغزوات على الموانئ العربية، وبالتالي كان الجيش العثماني في تلك المرحلة يتمتع بسمعة طيبة في العالم العربي واليمن.

كان اليمنيون يشعرون بالرهبة حين قدم الجيش العثماني إلى اليمن، والخوف من قوة أسلحته النارية والمدفعية، التي كان اليمنيون حديثو عهدٍ بها، ولم تنتشر فيما بينهم آنذاك.

حين تسلم القيادة أزدمر باشا كان اليمنيون قد خرجوا من عهد الإضطرابات والحروب التي قامت بين المماليك والطاهريين، ولذا كان قدوم العثمانيين بمثابة إنقاذ من تلك الحروب والإضطرابات التي سادت أراضي اليمن.

(1) دفاتر المهمة D :1026/7B.o.e
(2) دفاتر المهمة D ,2356/7:B.o.e.12/76

وكان الجنود العثمانيون يحاربون باندفاع من أجل تحقيق الهدف الذي قدموا من أجله، وهو توسيع الحكم العثماني.[1]

سنان باشا الوزير:

كان الوضع مختلفاً حين تولى سنان باشا قيادة الحملة المتجهة إلى اليمن، فقد كان الحكم العثماني في أقصى حد لتدهوره وانكماش حكمه في مدن وأقاليم اليمن كافة، ووصل الأمر إلى حصار الوالي حسن باشا وقواته في مدينة زبيد التهامية.

اضطربت أمور الدولة في عهد السلطان سليم الثاني، وانعكس ذلك على الوضع في مصر وتخاذل ولاة مصر عن تقديم العون والإمدادات للقوات العثمانية في اليمن بقيادة سنان باشا.

ارتكب الولاة والموظفون العثمانيون في اليمن الكثير من الأخطاء طوال السنوات التي تلت خروج أزدمر باشا من اليمن، حتى قدوم سنان باشا، وبالتالي واجه شعوراً عدائياً قوياً تجاه قواته. أصبحت الأسلحة النارية في فترة سنان باشا منتشرة وبكثرة في يد اليمنيين، ولم يعودوا يخشون هذه الأسلحة كما كانوا في عهد أزدمر باشا.

مع مرور السنوات في تواجد العثمانيين في اليمن أصبح اليمنيون لا يخشون ولا يهابون الجندي العثماني كالسابق؛ لأنهم ألفوا معاشرته، وتعودوا على وجودهم بين ظهرانيهم.

في عهد سنان باشا لم يعد الجندي العثماني يحارب بنفس الاندفاع والحماس، بعد ما تكشفت لديهم مصاعب الميدان اليمني في الحروب.[2]

وفي عهد سنان باشا اختلفت نظرة الجنود حول الميدان اليمني، وفقد بريقه، فقد تعرفوا بقوة على كل مصاعب القتال، وقلة الغنائم، ولم يعد يجذبهم هذا الميدان كالسابق.

لكن بالرغم من كل ذلك لا يمكننا أن نقلل من أهمية حملة سنان باشا، التي نجح من خلالها أن يعيد السيطرة والتوطيد للحكم العثماني، بعد أن كانت قد انحسرت حول أسوار مدينة زبيد.

(1) سالم: الفتح، ص 301.
(2) سالم: الفتح، ص302.

وكانت هذه الحملة بداية لعهد طويل من السيطرة والتوطيد للحكم العثماني، حتى تم إعلان ثورة الإمام القاسم في نهاية عهد الوالي حسن باشا سنة 1605م.

الخاتمة

نستخلص من خلال العرض السابق لفترة قيادة الحملة العثمانية إلى اليمن أن الواليين أزدمر باشا، وسنان باشا الوزير كان لكل واحد منهما ظروفه الخاصة في قيادة الحملة العسكرية داخل اليمن، وكان لكليهما ظروف في كيفية تصدرهما القيادة، ثم محاولاتهما الحثيثة من أجل ترسيخ وتوطيد وفرض الحكم العثماني في اليمن، وكان لكليهما دافع شخصي من القيادة والمضي بقوة حتى تمكنا من تحقيق أهداف فرض الحكم العثماني في جنوب الجزيرة العربية، وعلى ساحل البحر الأحمر.

نتائج البحث:

1- أولى العثمانيين منذ سنة 1538م إهتماماً بالغاً بالبحر الأحمر وباليمن.

2- أدركت الدولة العثمانية بعد أن نجحت في السيطرة على مصر والشام (1516، 1517م) وفرض قوتها على الحجاز، أدركت أهمية البحر الأحمر والحاجة الماسة لتأمين الملاحة فيه.

3- بَيَّن البحث حجم النزاعات وعمق الخلافات الأسرية في أسرة آل شرف الدين.

4- قوة شخصية أزدمر باشا وعدله وإحسانه إلى الأهالي.

5- تحقق للعثمانيين لأول مرة في تاريخهم في اليمن توحيد هذه البلاد تحت سيطرتهم على يد أزدمر باشا.

6- تعاون بعض القوى المحلية من الأهالي مع العثمانيين.

7- نجاح حملة سنان باشا الوزير من إعادة السيطرة العثمانية على اليمن.

8- واجه العثمانيون خلال وجودهم في اليمن ثورات متعددة ومقاومة من قبل القادة اليمنيين وقد لقيت تلك الثورات تأييداً من قبل فئات الأهالي.

التوصيات:

1- ندعو الجامعات اليمنية ومراكز الأبحاث والدراسات التاريخية إلى الاهتمام بدراسة منطقة البحر الأحمر وذلك لما له من أهمية سياسية واستراتيجية كبرى بالنسبة لليمن والدول المجاورة.

2- ندعو جميع الباحثين إلى كتابة وتدوين الأحداث والمجريات التي جرت في تاريخ اليمن الحديث.

قائمة الوثائق والمصادر والمراجع

أولاً: الوثائق:

1. دفاتر المهمة: وثائق عثمانية، ترجمة: د. محمود عامر، مكتبة الباحثة.

ثانياً: المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجمهورية اليمنية، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1422هـ/ 2002م.
2. أحمد بن محمد الشرفي: اللآلئ المضيئة، مخطوط، مكتبة الباحثة.
3. أحمد راشد بك: تاريخ اليمن وصنعاء، المركز الوطني للوثائق، صنعاء ج.ي، ترجمة: مديرية التطوير القتالي.
4. أحمد صالح المصري: موقف المؤرخين اليمنيين المعاصرين للحكم العثماني الأول بين مؤيد ومخالف، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، كلية الآداب، 2006م.
5. أحمد فضل بن علي العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/ 1980م.
6. أمة الملك الثور: {الولاة العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنسانية في فترتي الحكم العثماني الأول والثاني لليمن (945-1045هـ/ 538هـ/ 1635م – 1289- 1336هـ/ 1872-1918م) السياحة والآثار، المجلد الثاني والعشرون، رجب 1431هـ/ يوليو2010، جامعة الملك سعود (125-149).
7. الشوكاني، محمد بن علي(ت1250هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: حسين بن عبدالله العمري، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1998، ط الأولى، ص826.

8. حسين بن عبدالله العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، 1422هـ - 2001م.

9. سيد مصطفى سالم: البحر الأحمر والجزر اليمنية، دار الميثاق للنشر والتوزيع، 2006م.

10. سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن (1538-1635م) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978م.

11. شمس الدين عبدالصمد بن إسماعيل الموزعي اليمني: دخول العثمانيين الأول إلى اليمن (المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان) تحقيق: عبدالله الحبشي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 1407هـ/ 1986م.

12. عبدالواسع بن يحيى الواسعي: تاريخ اليمن المسمى (فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن) مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، 1990م.

13. عيسى بن لطف الله شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط1، 1424هـ-2003م.

14. فاضل بيات: البلاد العربية في الوثائق العثمانية، المجلد الثاني، استانبول، 2011م.

15. قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي: البرق اليماني في الفتح العثماني، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 1407هـ/ 1986م.